السّرد والحجاج[1]:

Narration and argument

المؤلف: تيري هيرمان (Thierry Herman)

المترجم: د/ كمال الزماني

جامعة القاضي عياض

كلية اللغة العربية/مراكش

(ka.ezzamani@uca.ac.ma)

تاريخ الإرسال: 28-02-2024 تاريخ القبول: 09-05-2024 تاريخ النّشر: 30-06-2024

الملخص:

هذا البحث هو ترجمة لمقال "السرد والحجاج" للباحث الفرنسي تيري هيرمان (Thierry Herman)، وهو يُناقش العلاقة بين السرد والحجاج، ويؤكد أن السرد ليس مجرد عرض محايد للوقائع، بل هو أداة لإقناع الجمهور بوجهة نظر معينة، وذلك عبر استخدام تقنيات مثل: اختيار الأحداث وترتيبها واستخدام لغة مشحونة عاطفيًا. كما يُقدم هذا المقال باراديغمين لتحليل السرد وهما: الباراديغم الاستدلالي الذي يركز على التأويل والاستدلالات الضمنية ويرى أن المعنى ليس شيئا محددًا مسبقًا، بل ينشأ من خلال تفاعل النص مع القارئ والسياق التاريخي والثقافي، والباراديغم التفاضلي الذي يؤكد أن المعنى ينشأ من التفاعل الاستبدالي والتركيبي بين الوحدات اللغوية.

ويخلص البحث إلى أن السرد والحجاج مترابطان بشكل وثيق، وأن هذين الباراديغمين يقدمان وجهات نظر متكاملة لفهم الوظائف الحجاجية للسرد في الخطاب.

الكلمات المفتاحية: السرد، الحجاج، الجمهور، الخطاب .

Abstract:

This research is a translation of the article “Narration et argumentation” by the French researcher Thierry Herman. He discusses the relationship between narration and argumentation and confirms that narration is not just a neutral presentation of facts but rather a tool to convince the audience of a certain point of view, using several techniques such as event selection, organization, and emotionally charged language. The article also presents two paradigms for analyzing narratives: the inferential paradigm, which focuses on interpretation and implicit inferences, suggesting that meaning arises from the interaction of the text with the reader and the historical and cultural context, and the differential paradigm, which emphasizes that meaning emerges from the paradigmatic and syntagmatic interaction between linguistic units.

The research concludes that narration and argumentation are closely linked and that these two paradigms offer complementary perspectives for understanding the argumentative functions of narration in discourse.

key words: Narration, argumentation, audience, discourse

يُفترض أن يكون السرد، وفقًا للبلاغة القديمة، عرضا واضحًا وموجزًا وممكنا للوقائع. وتنبثق من ذلك فكرة تقديمٍ محايد قدر الإمكان لهذه الوقائع، وهو تقديم معادل لما يسميه الصحفيون المعلومات الواقعية البحتة. لكن في نمط الترتيب (Dispositio) حيث يأتي السرد بين الاستهلال (Exorde) والدليل فإنه يُفترض فيه أن يُهيئللمرحلة الحجاجية اللاحقة، وبالتالي يميل نحو وجهة النظر التي سيدافع عنها المتكلم. يقول رولان بارت (Roland Barthes) إن السرد هو "تصدير (Protase) حجاجي"[(2)]: وهي صيغة رائعة لكنها تثير تساؤلات حقيقية حول طبيعة هذا الجزء من الترتيب الذي يبدو أنه يتأرجح بحذر بين الحياد والتحيز على

غرار صورة "قلب العبارة" (Chiasme) لـ أوليفييه ريبول (Olivier Reboul) التي تتأرجح بين الموضوعية والظاهر (Apparence):

"السرد هو عرض الوقائع المتعلقة بالقضية، وهو عرض يُظهر الموضوعية ظاهريًا، بينما يكون في الواقع مُوجّها دائمًا حسب احتياجات الاتهام أو الدفاع. مع ذلك، فعلى الرغم من عدم كونه موضوعيًا، إلا أنه يجب أن يُظهر (Le paraître) أنه كذلك"[3].

يوجد هنا فصل بين المظهر والواقع، وهو فصل يُطرح في الوقت نفسه باعتباره حقيقة مسلما بها لم تتناولها الكثير من الأعمال التي تدعي أنها بلاغية، وباعتباره لا يحدد على الإطلاق الطبيعة اللغوية للسرد، فهو موضوعي دون أن يكون كذلك، وذاتي دون أن يَظهَر كذلك. ومع ذلك، ينطوي هذا الفصل بشكل دقيق، في رأيي،على المفهوم الذي يمكن أن نتصورهعما هو جوهري في البلاغة: أي نظرية الحجاج. ولذلك، سنعيد هنامساءلة العلاقة بين السرد والحجاج متسائلين بالخصوص عما إذا كان التمييز بين الاثنين مناسبا حقًا عندما يكون لهما هدف مشترك.

مفارقة السرد البلاغي:

عند قراءة أعمال أرسطو، نجد أن هناك جزأين فقط من الكلام يظلان ثابتين: "لا يوجد سوى جزأين في الخطاب، لأنه من الضروري تحديد الموضوع والتدليل عليه. لذلك يستحيل عدم التدليل على الموضوع عند عرضه، أو التدليل عليه دون عرضه بشكل مسبق (...) فالأجزاء الضرورية إذن هي العرض والدليل"[4].

ليس السرد بالضرورة هو ما يُترجَم بالعرض، لأن نموذج الترتيب ليس ثابتا إلى الأبد. ومع ذلك، يوجد بالفعل نوع من التوتر بين العرض والحجاج، وهو توتر يمكن

قراءته في التذبذب في تحديد ما يسميه برونكارت (Bronckart) وآدم (Adam) بالفعل اللغوي لهذا المقطع الخطابي.

يقدم جان بول برونكارت بشكل خاص نموذجًا يقترح خطًا فاصلًا بين نشاطين لغويين يسميهما بالمحكي (Le Raconter) والمعروض (L'Exposer). ولكن باتباع هذا النموذج سنتردد باستمرار بين فكرة أن السرد يقدِّم قراءة لعالم مرتبط بالواقع الحالي، لأنه ضروري للحكم على حالة ما (سنكون عندئذ في نموذج الخطاب النظري وفقًا لمصطلحات جان بول برونكارت)، وفكرة السرد المفكك لأنه مجرد عرض مستقل للحقائق. لكننا سنتردد أيضًا بين المحور الآخر المقترح في هذا النموذج، أي مشاركة الأشخاص الطبيعيين في الفعل اللغوي قيد الإنجاز أو محور الاستقلال التلفظي. وهنا نضيف أن أرسطو يفضل بوضوح أشكال المشاركة:

"يجب أيضًا سرد الحقائق الماضية، مع عرضها كأنها حاضرة، لإثارة شعور بالشفقة أو التمرد (...) إضافة إلى ذلك، استخدم مصطلحات السرد للتعبير عن المشاعر، دون إغفال النتائج (...): "عندما غادر، رمقني بنظرة غاضبة"[(5)].

المثال المقدم هو نموذج للسرد الذي يهدف بشكل كامل إلى إقناع المستمع. يضيف أرسطو كذلك:

"يقول إسخيل (Eschyle) أيضا عن كراتيل (Cratyle) إنه رحل وهو يصفر بغضب ويُلوّح بقبضتيه؛ هذه التفاصيل مقنعة، لأن الحقائق التي نعرفها تصبح رموزًا لتلك التي نجهلها".

نلاحظ هنا وجود مزج واضح إلى حد ما بين واقع ملحوظ ووصف بواسطة الصفة "سيئة" أو الحال "بغضب" (Furieusement) الذي لا يخفى على أحد طبيعة السرد الموجَّه بشكل حازم. إضافة إلى ذلك، فإن إشارة أرسطو إلى المشاعر تتعارض مع الفكرة التي كشفها رولان بارت:

"ينبثق الترتيب من ثنائية أساسية كانت موجودة بالفعل، بعبارة أخرى، في مرحلة الإيجاد (Inventio): استدعاء المشاعر (Animosinterpellare) (تحريك العواطف) (Émouvoir) / تعليم شيء ما (Rem docere) (الإخبار، الإقناع). المصطلح الأول (استدعاء المشاعر) يغطي مرحلتي الاستهلال والخاتمة، أي الجزآن اللذان يقعان في حدود الخطاب. أما المصطلح الثاني (استدعاء الواقع والعقل) فهو يغطي مرحلتي السرد (العلاقة بين الوقائع) والدليل (تقديم الحجج أو طرق الإقناع)، أي الجزآن الأوسطان من الخطاب"[6].

لم يكن كينتيليان (Quintilien) حاسما إلى هذه الدرجة بشأن الحاجة إلى عرض الوقائع، لأنه توجد من جهة بعض القضايا التي تكون قصيرة جدًا لدرجة أنها تتطلب عرضًا مُوجزًا للوقائع بدلاً من سرد مُفصّل[7]، ولأنه يمكننا من جهة أخرى:

"الاستغناء عن السرد إذا كان القاضي يعرف ما حدث، ولكن أيضًا إذا كانت لديه وجهة نظر إيجابية تجاه قضيتنا. فالغرض، في الحقيقة، من سرد القصص ليس فقط إخبار القاضي، بل حمله على الاتفاق معنا"[8].

يتمثل الجانب اللافت للنظر في مقاربة كينتيليان للسرد في أن هذا المقطع الخطابي يأخذ في الوقت نفسه أهدافًا تبدو متعارضة بين الكفاءة المؤسسية (الاستغناء

عن ملخص الوقائع الذي قد يكون عديم الفائدة إذا كان القاضي يعرف ما حدث، والذي يبدو أنه يفك ارتباط أي سرد مع مشروع حجاجي معين) والفعالية الخطابية أو البلاغية التي تهدف إلى جعل القاضي يوافق على الوقائع نفسها، وتكون الأخيرة أهم من الثانية من الناحية الهرمية. ونجد هذا البعد المزدوج أكثر قليلاً في المؤسسات الخطابية: "السرد هو العرض الموجه نحو الإقناع بفعل تم إنجازه أو يُدعى أنه تم إنجازه"[9]. تضاف هنا مسألة المظهر والواقع إلى العلاقة الغامضة بين عرض الوقائع والحجاج الإقناعي. نقصد بعرض الوقائع شكلاً من أشكال حقيقة مشروطة ما، لا سيما في الإطار القانوني الذي يضع فيه معظم الفاعلين السرد بشكل خاطئ، وهذا فقط ما يكون ظاهرا –أو محتملا– لأن كينتيليان لا يستبعد السرد الكاذب بل ويوصي الخطباء بأن يكونوا شهودا على حقيقة ما يسمى بالموتى (لأنهم لم يعودوا موجودين للإنكار)، أو الأشخاص المؤيدين للقضية (لأنهم لن يتكلموا) أو المتهم (لأن لا أحد سيصدق إنكاره).

قصد العودة إلى مسألة الفعالية الحجاجية للسرد، يبدو من البديهي القول مع كينتيليان إن انتقاء الوقائع التي ستقدَّم وكذا ترتيبها هو ما سيقود القاضي إلى تأييد القضية. فكينتيليان لا يتصور أن هذا العرض للوقائع يمكن أن يكون حجاجيا بشكل جوهري، إذ يصرح على سبيل المثال: "سنمتنع دائمًا عن الحجاج أثناء السرد"[10]. يوجد بالتالي شكل واضح إلى حد ما لتقسيم المهام بين أنشطة خطابية تتكون من عرض الوقائع والتحاجج بشأنها. وهو تقسيم للمهام ينطبق أساسًا على نموذج المرجع القديم حيث تكون الكلمات عبارة عن تسميات تحدد الأشياء، وتكون رابطًا مباشرا بين العلامة ومرجعها. نرى هنا أن وسائل جعل السرد مقنعًا هي الوقائع الزائفة أو

ترتيب الحقائق بطريقة ما أو اعتماد عواطف معينة. وفي كل الحالات الثلاث يظل الواقع شكلاً من أشكال الحقيقة غير الملموسة وغير القابلة للتغيير، والذي يجب على الخطيب أن يتعامل معه بدلاً من أن يتصرف بناءً عليه. غير أن اللسانيات طورت هذا النموذج من الدلالة تمامًا. إذ يتعلق الأمر، في إطار إعادة تصور البلاغة، بأخذ باراديغمات (Paradigmes) جديدة من الدلالة في الاعتبار، وبالتالي بتطوير نموذج السرد.

من الحجاج في الخطاب إلى وضعية التأويل:

نجد في الوصف الذي قدمه أرسطو وكينتيليان للسرد كلَّ ما ساهم في تقزيم البلاغة عند أفلاطون حتى المرحلة الوضعية، لأننا نجده هنا بشكل أكثر تعمقا تناقضا جوهريا بين النموذج الوضعي للمرجع حيث يتعين أن تكون الحقائق المعروضة في جوهرها حقيقية، وبين الوظيفة الإقناعية للخطاب البلاغي –التي تصبح هنا أكثر قابلية للنقد، إذ إنها تدعو إلى الكذب عن طريق الإغفال وأحيانا إلى تلفيق وقائع كاذبة دون أن تتخلى عن النموذج المرجعي. منذ ذلك الحين، تم تقويض النموذج المرجعي (Référentiel) وتحديه من طرف النموذج الاستدلالي (Inférentiel) للتداولية (سواء كانت مدمجة أو معرفية) ومن طرف النموذج التفاضلي (Modèle différentiel)، وهو نموذج أقل شهرة– نموذج تأويلي يمْكنني من خلاله أن أدرج في كل الحالات جزءًا من أعمالي في تحليل الخطاب. وسيكون من الضروري، قبل التعمق في الموضوع، مناقشة هذين النموذجين بناءً على مسألة الحجاج. سنبسط ملاحظاتنا من خلال سرد معروف جيدًا يتعلق بنداء 18 يونيو:

(1) القادة الذين (2) منذ سنوات عديدة (3) يوجدون على رأس الجيوش الفرنسية (4) شكلوا حكومة.

(5) هذه الحكومة (6) ادعت هزيمة جيوشنا، (7) واتصلت بالعدو (8) لإنهاء القتال.

النظرة الكلاسيكية للحجاج:

لن يكون لدى أي شخص، من وجهة نظر كلاسيكية للحجاج، ما يقوله حول هذا المقطع. يبدو لي مثلا من المستحيل تطبيق النموذج التوليني (Toulminien) على هذا المقطع. لن تكون هناك سوى معطيات، وهو مصطلح يدل في حد ذاته على تفاعل حجاجي، وهو يظل مرتبطا بالطابع الصوري (Formel) للمنطق وإن كان يقيم بالتأكيد قطيعة معه. لذلك لا يوجد تخلٍّ كلي عن بعض المقدمات الموروثة من المنطق الوضعي، والتي يمكن رؤية أثرها في الصفة الصريحة "معطاة" للمقدمات، كما لو كانت هذه المقدمات موجودة قبل صياغتها اللغوية، وكما لو أن هذه الصياغة اللغوية يمكن أن تظل شفافة، وبالتالي تتيح الوصول المباشر إلى الأشياء.

بصرف النظر عن هذا الجانب المعرفي، فإن دراسة الحجاج في هذا المجال محدودة بمقاطع نصية ما – يُبرز ملاءمة المقطع الحجاجي. وبالنسبة لأي تقليد، ولا سيما التقليد الأنجلوسكسوني، فإن الحجة هي "وجهة نظر تبررها أسباب معينة"[(11)]. نجد أنفسنا هنا مرة أخرى –ودون الرغبة في التقليل من شأن هذه المقاربة– في نموذج عقلاني مشوب بشدة بالوهم المرجعي ومستوحى إلى حد كبير من القياس المنطقي الأرسطي.

البارادیغم الاستدلالي (Paradigme inférentiel):

لا يتم في البارادیغم الاستدلالي بناء المعنى بين مفهوم لغوي وموضوعه (Objet)، ولكن بين عنصرين من نفس الترتيب، ينشأ المعنى على سبيل المثال بين مفهومين أحدهما يُؤخذ علامة على الآخر. لذلك فإن أحد أعضاء العلاقة هو "سابق، والآخر ناتج – مؤقتًا أو سببيًا أو بأي طريقة أخرى"[12]. لقد استحوذ التيار التداولي على هذا الباردیغم فحوله إلى مقاربتين رئيستين:

التداولية المعرفية لغرايس (Grice) ثم سبيربروويلسون (Sperber et Wilson) والتداولية المدمجة المتعلقة بنظرية الحجاج في اللغة عند أوزفالد ديكرو (Oswald Ducrot).

يوضح فرانسوا راستيي (François Rastier) جيدًا أن نظرية غرايس هي شكل من أشكال إعادة صياغة التحليلات الأولى لأرسطو التي يكون فيها "التفكير الاستدلالي منحصرا في الواقع في إكمال القياسات المنطقية غير الكاملة أو إكمال الضمائر (Enthymèmes)"[13]. وبالطريقة نفسها، فهو يعتبر أن تضمينات (Implicatures) غرايس – التي تفترض التمييز بين ما يقال وبين ما يتضمنه القول – تغطي ما تسميه البلاغة بصور الفكر[14]. يمكننا أن نتفق معه على أن هذه المقاربة تَعُد "التأويلي مثلَ حساب استدلالي" "أضافت إليه نظرية الملاءمة ببساطة مبدأ قبليا للاقتصاد المعرفي لتنظيم هذه التضمينات وتعيين مصطلح لها"[15]. في هذا البارادیغم الاستدلالي تكون اللسانيات محددة بشكل غير كافٍ، ولإعادة بناء ما ينقله المتكلم، يجب المرور عبر التعليمات التي يقدمها الملفوظ في سياقٍ خاص. وهذا يفترض، بطريقة

معينة، أن التضمين يتمّ إطلاقه من خلال شكلٍ من أشكال كسر القاعدة، وهو كسر يكون واضحا بما يكفي للتحدث عن شكلٍ من أشكال اللسانيات التوجيهية (Linguistique instructionnelle). وفي هذا الصدد، فإن النقد الذي اقترحهراستيي مثير للاهتمام: "النظرية التوجيهية للتأويل الناجمة عن هذا التيار، مثل نظرية إيكو (Eco) هي في الوقت نفسه مثيرة ومحدودة، لأن مفهوم التوجيه قوي للغاية، وإذا كان التأويل المنظم يمكن أن يشمل إجراءات معينة، فهو لا يمكن اختزاله فيها"[16].

إذا كنا راضين عن فكرة أن مبادئ غرايس يمكن أن تكون إجراءات ضرورية للتأويل، فإنه يبدو لي أننا نملك أداة تأويلية مهمة. إنني أتحدث عن أداة تأويلية وليس عن شكل من أشكال إكراهات التواصل التي كانت تعد المستوى اللساني غير مكتمل ويجب بالضرورة أن يجد اكتماله في التضمينات. يمكننا أن نرى هذا من خلال المثال الذي قدمناه.

هل يمكن أن نقول بخصوص هذا السرد المرتبط بنداء 18 يونيو إنه تمت إثارة تضمين ما، هل يوجد هنا عنصر يستحق التوضيح؟ يبدو السؤال مفتوحا. لا يظهر لنا أن مؤيدي الباراديغم الاستدلالي سوف يعتبرون هنا وجود داع لإثارة استدلالات معينة إن لم يكن في الإعادة الإحالية (Anaphorique) بين "حكومة" و"هذه الحكومة"، وهي إعادة تتطلب الكثير من الجهد مقارنة بالاقتصاد اللغوي لإعادة بسيطة بالضمير. ولكن هل يصل الأمر إلى حد إثارة الاستدلالات ؟

يمكننا كذلك أن نتخيل أن المركب الاسمي "القادة" يمكن أن يكون مثار تساؤل على اعتبار أنه ينتهك قاعدة الكيف (Maxime de qualité)، لأن بيتان

(Pétain) في الحقيقة هو الذي شكل حكومة عيَّنَ فيها أحد جنرالاته وهو ويغان (Weygand). لكن هل يمكن حقا إدراك هذا الانتهاك للقاعدة؟ هل توجد هنا أي إثارة (Déclenchement)؟ هل نَدخل هنا حقًا في الدلالة غير الطبيعية لغرايس: "القول إن المتكلم كان يريد أن يقول شيئًا ما بجملة معينة هو القول إن هذا المتكلم كان ينوي، عند تلفظه بهذه الجملة، إحداث تأثير على مخاطبه بفضل إدراك هذا المخاطب لقصده"[17] –طريقة تفترض وجود فرق بين ما قيل وما نُقِل (Transmis)؟ وجواب هذه الأسئلة الثلاثة هو النفي. فمن وجهة نظر تواصلية، يبدو لنا أن التداوليين المعرفيين يفضلون التحدث عن خطاب يكون مقبولا اقتصاديًا بشكل تقريبي، ويكون معناه الحرفي مكشوفا. وهنا بالتحديد يكون النهج التأويلي مهما لأن صيغة الجمع لكلمة "قائد" تثير بالتأكيد إشكالية في السياق التاريخي لشهر يونيو 1940. وعلى نحو مماثل الإعادة بإحالة قبلية توضيحية لمركب اسمي معبر عنه في مسند (Rhème) الملفوظ السابق. يجب أن يقال هنا إن نهج التداولية المعرفية يقوم على أنطولوجيا (Ontologie) موروثة مباشرة من الفلسفة الوضعية ذات النتائج التي لا يمكن الاستهانة بها:

"الفلسفات الوضعية، هرمينوطيقات الوضوح هذه تهدف إلى رسم حدود التأويل وتَعُد الفهم "العادي" (Normal) أمرًا طبيعيًا وغير مشروط. فهي تشترك بشكل أو بآخر في أطروحات مميزة: التأويل الدقيق الذي تتم إثارته بواسطة "توجيهات" محلية؛ والذي يخضع لقواعد الملاءمة (سبيربر، إيكو) التي تمنحه الاقتصاد والفعالية؛ فهو عبارة عن توضيح يعيد الحقوق السيادية إلى المعنى الحرفي المحجوبٌ مؤقتا"[18].

في الواقع، منذ اللحظة التي نستحضر فيها إمكانية تحديد التأويل الذي يكون دقيقًا فقط نكون بعيدين عن التأويل النقدي الذي يؤسس في رأيي تحليلَ الخطاب. إن مفهوم التوجيه قوي أيضًا، بل إن قوته تتزايد في التداولية المدمجة لأزفالد ديكرو. نحن على دراية تامة بنظرية الحجاج في اللغة التي ترى أن الحجاج موجود فقط في تسلسل الملفوظات بشكل مستقل عن النشاط المعرفي للاستدلال والعلاقة المرجعية مع العالم الموصوف بالملفوظات المعنية. في بدايات النظرية، لم يلاحظ ديكرو و أنسكومبر (Anscombre) إلا التسلسلات الناتجة، "أي مماثلة لتلك التي يمكن الإشارة إليها بواسطة رابط من نوع "إذن" (Donc)"[19]، سواء تم تمييز العلاقة بواسطة رابط أم لا.

فمنظور هذين الباحثين مستقل عن منظور استدلالي يستوفي شروط حقيقة قضية ما (Vériconditionnel)، لأنه كما يقول ديكرو في الإجابة "نعم، تقريبًا" عن سؤال "هل أنت مستعد للمغادرة؟"، "من الواضح تمامًا أن كلمة "***تقريبا***" (Presque) تصف موقفًا لست مستعدًا فيه بعد: سيكون من التناقض أن نستنتج منها الحقيقة التي تعبر عنها كلمة "نعم"، أي أن نستنتج منها أننا مستعدون"[20]. يؤدي الموقف الأخير للحجاج في اللغة إلى جعل الملفوظ الحجة والملفوظ النتيجة مترابطين بشكل تام. بالنسبة إلى ديكرو، فإن المعنى الجوهري (Sens intrinsèque) للملفوظ أو الكلمة يحتوي على علاقة حجاجية في ذاته. ففي (أ) إذن: (ب)، (أ) تقول بشكل مسبق إنها تؤدي إلى (ب)، إضافة إلى أنها تشير في الوقت نفسه إلى أنها تتعارض مع ملفوظات أخرى. ومنه فإن نظرية الكتل الدلالية (Blocs sémantiques) تستلزم أنه "لا ينبغي البحث عن الدلالة اللغوية للكلمة الذكية في قيمتها الوصفية لقدرة

ما (يمكن قياسها بواسطة معدل الذكاء (Quotient intellectuel)) ولكن في التوجيه الذي يفرضه استخدامها في ملفوظ ما على الخطاب اللاحق؛ على سبيل المثال "بيير (Pierre) ذكي، يمكنه حل هذه المشكلة"[21].

تعد أطروحة ديكرو مثيرة للاهتمام من حيث إنها لسانية بحتة ومن حيث إنها تسعى أساسًا إلى مناقشة قيمة علامة ما، وهي قيمة يتم النظر إليها هنا من زاوية حجاجية. ومن هذا المنظور، لم يعد معنى الكلمات محددًا في الخطاب ولكن في اللغة، حيث يسعى ديكرو إلى وصف المعجم عن طريق الكتل الدلالية من خلال الرابطين "رغم أن (Pourtant)، و"إذن" (Donc). فالوحدة المعجمية « باب » مثلا تتطلب حجاجا داخليا من نوع "الانفصال رغم الاتصال" يؤدي إلى العثور بشكل غريب على الملفوظ "يوجد باب، لكنه مفتوح". إن عيب هذا النوع من المقاربة، في نظرنا، هو أن معنى الكلمات مستقل تمامًا عن النص الذي توجد فيه. ولكن، بالنسبة لمعظم محللي الخطاب:

"في منظورنا التأويلي، فإن النص هو الذي يحدد معنى الكلمات – انطلاقا من دلالتها في اللغة، ولكن من خلال إعداد هذا المعنى وإثرائه و/ أو تقييده بفعل المعايير العامة والظرفية (...) فالدلالات المدرجة في اللغة ليست سوى افتراضات: اللغة تقترح، والنصوص تنظم"[22].

وبالعودة إلى مثالنا، فمن المؤكد أن الفعل "ادعى" سيثير فورا اهتمام مؤيدي نظرية الحجاج في اللغة، نظرًا لأن حجاجه الداخلي من المحتمل "أن يعتمد على حقيقةٍ رغم أنه (Pourtant) لم يتم إثباتها جيدًا". يمكننا أن نقول بوضوح إن هذا هو

البرنامج الذي تم تحقيقه هنا. ومن ناحية أخرى، يمكن أن تحتوي كلمة "قادة" في مثالنا السردي بشكل جيد جدًا على حجة داخلية من نوع "المسؤولية إذن الكفاءة". إن النص هو الذي سيمنع هذا التأويل ويستدعي بدلاً من ذلك علاقة "رغم أن" من نفس الكتلة الدلالية "المسؤولية رغم انعدام الكفاءة"، وذلك بسبب مجاورة الفعل "ادعى". يبدو لي أننا سنواجه صعوبة أكبر في استخدام صفة "كثير". هل يؤدي كونك قائدًا لسنوات عديدة إلى ملفوظ–نتيجة: إذن: أنت كفء، أم إذن: حان وقت التغيير؟ مرة أخرى، فإن النص هو الذي يجزم أكثر من الحجاج في اللغة. بغض النظر عن توجيهٍ يستهدف اللغة أكثر من الكلام، فإن منظور ديكرو مثير للاهتمام بالنسبة إلى هدفنا، لأنه في مثل هذه الحالة، لا يوجد سبب لفصل السرد عن الحجاج: كل ملفوظ وكل كلمة في حد ذاتها هي حجاج يستدعي متواليات حجاجية. نجد هنا شكلًا قويًا للتوجيه الحجاجي للملفوظات. إحدى النتائج تستلزم بالفعل اعتبار أن كل شيء هو حجة، أو بالأحرى أن كل شيء هو موجه حجاجي، وهو ما يجب تمييزه عن الحجاج نفسه. يجد كريستيان بلانتين (Christian Plantin) نقطة مشتركة بين نظرية الحجاج في اللغة ونظرية المنطق الطبيعي لجون بليز غرايس:

"يمكننا أن نقول بالنسبة إلى غرايس كذلك، بمعنى مختلف بوضوح عما جاء به ديكرو، إن كل ملفوظ يحاجِج، لأن كل ملفوظ يقترح على المخاطب مخططًا يعرض الواقع في "ضوء" منظور معين. يكون لجميع عمليات بناء الملفوظ قيمة حجاجية، انطلاقا من عملية التأطير المكونة من طريقة إدخال موضوع ما في الخطاب وصولا إلى التنظيمات المقصودة. إذا كان الحجاج هو "عملية تهدف إلى التأثير على رأي شخص ما أو موقفه أو حتى سلوكه" عن طريق وسائل تخطيط معين والتأثير على التمثلات

(Représentations)[23]، فإن ملفوظا إخباريا كلاسيكيا مثل "إنها الساعة الثامنة صباحًا" هو حجاجي بهذا المعنى"[24].

من الواضح أنه يوجد شيء مذهل في هذا الانغماس في الكلّ الحجاجي. سوف ندافع في الوقت الحالي عن شكل مخفف لمنظور الحجاج هذا. بمعنى أنه لكل كلمة ولكل ملفوظ توجيه تأويلي –وهو توجيه يمكن أن يكون أحيانًا ذا طبيعة حجاجية، ويعتمد كذلك على وصف موجود في اللغة أكثر مما يعتمد على وصف كائن في الكلام. وهكذا فإن المركب اللغوي "سنوات عديدة"، والذي يمكن اعتباره في المطلق – في اللغة – في جانب إيجابي، يُلوَّن هنا بمعنى سلبي بسبب قيود النص والنوع والتناص والسياق. ومع ذلك، فإن مثل هذا النهج قريب من البارادايغم التفاضلي الذي دافع عنه راستي، وقريب كذلك، بطريقة معينة، من التحليل النصي للخطابات عند جون ميشال آدم (Jean-Michel Adam).

البارادايغم التفاضلي:

يرى راستيي أن تأسيس البارادايغم التفاضلي يعود إلى الفكرة التي عبر عنها القس جيرار (Girard) سنة 1718، مؤكدا "أنه لا توجد كلمات مترادفة في أي لغة". هذه الفكرة التي من شأنها أن تكون أصل المفهوم السوسيري (Saussurien) للقيمة. فالقيمة هي بُعد مركزي في الدلالة النصية عند راستيي: "المعنى اللغوي لا يتشكل (أو لا يتشكل فقط) من خلال الإحالة (Référence) إلى الأشياء، أو من خلال الاستدلال بين المفاهيم، ولكنه يتشكل كذلك وقبل كل شيء من خلال الاختلاف

بين الوحدات اللغوية"[25]. ومشكلة الاختلاف هذه ليست مرتبطة بالعلامة (Signe) الواحدة بمعزل عن أي سياق:

"في مقابل إشكاليات العلامة، وأنماط الدلالة خارج السياق، تبرز إشكالية النص التي تقوم على التحليل التفاضلي، والتي تحدد المعنى من خلال التفاعل الاستبدالي (Paradigmatique) والتركيبي (Syntagmatique) للعلامات اللغوية، ليس فقط فيما بينها فقط، ولكن مع النص في كليته"[26].

هذا الاقتباس مهم ؛ إنه يؤدي إلى هيرمينوطيقا النص التي تنأى بنفسها عن البارادايغم البنيوي المدافع عن دراسة النص من داخله. إن أسبقية العالمي على المحلي الذي تنادي به هذه المقاربة تحدِّد داخل النص مسارًا تأويليًا معينًا يُحدَّد فيه المعنى من خلال اللجوء إلى وضع قوي للكلمات في السياق. إضافة إلى ذلك، فإن بارادايغم التفاضل له ميزة عدم منع المرجع أو الاستدلال:

"إن الأمر لا يتعلق بدمج البارادايغمات الثلاثة، بل بمعالجة الاستدلال والمرجع ضمن إطار الدلالة التفاضلية"[27].

سأضع ضمن هذا الإطار العام ملاحظاتي وسأقترح أول تفكير هيرمينوطيقي حول هذا السرد مع ذكر خطابات أخرى.

(1) القادة الذين (2) منذ سنوات عديدة (3) يوجدون على رأس الجيوش الفرنسية، (4) شكلوا حكومة.

إن البداية المباشرة والتي تكون دون مقدمات (Ex abrupto) هي سمة متكررة في الخطابات الديغولية (Gaulliens). فالنداء يبدأ برفض "كسب حسن نية الجمهور" (Captatiobenevolentiae)، وكأن القضية أسمى من أن تخضع لجزء من الخطاب غالبًا ما يُشتبه في كونه مخادعا.

لدرجة لا تسمح بالتنازل عن جزء من الخطاب يُشتبه في كونه مُخادعًا. إن تعيين "بيتان" من خلال شيء جماعي "القادة" ينطوي على بعض المسارات التأويلية. وتاريخياً، فقد طلب الرئيس ليبرون (Lebrun) من المارشال "بيتان" تشكيل حكومة. إن عدم ذكر اسم المارشال المرموق هو بالفعل علامة على إنكار سلطته، كما أن الاستخدام المبالغ فيه لصيغة الجمع له يؤدي إلى الدفع إلى توقع فكرة الإنكار ونشر خبر وجود انقلاب عسكري (Pronunciamiento). وموازاة مع هذا التأويل، يجب أن نأخذ في الاعتبار الفعل "شَكَّل" (Former) الذي يعطي انطباعا خفيا بأن القادة استولوا على السلطة، ولم تُسند إلى المارشال. لذلك، يُظهر السرد تشكيلا مفاجئا لحكومة فرنسية جديدة دون أن نعرف تماما من أين جاء هذا الطلب بتشكيل الحكومة. كما أننا سنعرض السرد كذلك على دعوة "بيتان" التي تبدأ بوضوح بـ"بناءً على دعوة رئيس الجمهورية". هذا التحول من نص إلى نص يؤسس بالنسبة لديغول لطابع غير شرعي لحكومة "بيتان"، كما لو لم يتم استدعاؤها لكنها نجحت في ممارسة ضغط كافٍ لفتح أبواب السلطة. وهنا نجد مرة أخرى أن فكرة الانقلاب ليست مستبعدة.

تعطي الجملة الظرفية (2) دقة مدهشة فيما يتعلق باقتصاد الخطاب، خاصة في هذه الوضعية التركيبية التي تركز فيها الانتباه عن طريق القطيعة التركيبية التي تحدثها في

الصلة (La relative). قد يكون هذا الإصرار غير المرغوب فيه علامة على تأويل سلبي لهذه السنوات من الخبرة. سيُظهر النص المصاحب (Cotexte) في الواقع أن التصاميم العسكرية للقادة السابقين عفا عليها الزمن. لذلك يجب أن نفهم فصل هذه الظرفية بوصفه مؤشرا على طابع غير مؤهل (Disqualifiant) يشير إلى أن هؤلاء القادة كانوا يقودون الجيوش الفرنسية لفترة طويلة جدًا وأنهم لا يستحقون تمامًا هذه المكانة. كما أنه ليس بريئًا تمامًا أن يُستخدم في الصلة فعل الحال (Verbe d'état) (يوجدون على رأس) والذي يختلف عن فعل الحدث (Verbe d'action) من نوع "يقود". مرة أخرى، يدل التأويل الذي ظهر على فكرة وجود شكل من أشكال عدم الكفاءة من جانب القادة أو، على الأقل، أن موقعهم بوصفهم قادة يمكن أن يكون غير مستحق. إنّ التركيز على الحال بدلاً من الحدث هو اختيار مُتوافق مع إدانة للقادة تبدو واضحة المعالم.

(5) هذه الحكومة (6) ادعت هزيمة جيوشنا، (7) واتصلت بالعدو (8) لإنهاء القتال.

إن الإعادة الإحالية لعبارة "هذه الحكومة" مثيرة للاهتمام لأنها لم تعتمد الاقتصاد اللغوي المتوقع والذي سيكون تكرارًا بواسطة "هذه" (Celui-ci) أو "هذه الأخيرة". فالإعادة بواسطة اسم إشارة تؤكد الجانب الإشاري لهذه العلامة الإشارية (Déictique): وهكذا يلقى اللوم على الحكومة ولا يؤيد المتكلم وجودها. يكشف التحليل البوليفوني بوضوح أن قيمة الفعل "ادعى" تجعل من الممكن تمييز الاختلاف مع أفعال أخرى من قبيل "استند إلى" أو "تَذَرَّعَ ". كما نجد في هذا السرد، من خلال السبب المدَّعى، بذرةَ التبكيت القادم. هذا السرد الموجود في ملفوظين يعبّر

بالتأكيد عن حقيقتين لا يمكن دحضهما تاريخيا، تَم تقديمهما على أنهما محايدتين، لكن تكرار كلمة "الجيوش" ينشئ استراتيجية للتنديد بالقوة العسكرية تنتقل بشكل كبير عبر الضمني (L'implicite). وقد أكد إيف راي هيرم (Yves Rey-Herme) هذه النقطة في تحليل للنص نفسه:

"لماذا التذكير بأن أولئك الذين شكلوا للتو حكومة كانوا "لسنوات عديدة على رأس الجيوش الفرنسية"؟ لكي يُدحض بشكل مسبق أي حجاج من شأنه أن يلوم السياسة على هزيمةٍ دوافعُها العسكرية واضحة"[28].

يسمح هذا الاندماج بين المجالين العسكري والسياسي لديغول بتشويه سمعة هذه الحكومة الجديدة المشكلة من القادة العسكريين الذين أظهروا، في نظر الجنرال، افتقارهم إلى الفطنة وعجزهم عن التكيف مع الاستراتيجية العسكرية التي تتطلبها المرحلة. إن عدم تكيفهم العسكري يجب أن يقوض قدراتهم السياسية. تضمن هذه الوظيفة العلاقة المتناقضة التي تم إنشاؤها في المساحة الضيقة لجملتين متجاورتين، والمعززة باستخدام نفس المركب اللغوي "الجيوش":

على رأس الجيوش الفرنسية

مقابل

ادعاء **هزيمة** جيوشنا

بقي لنا كذلك أن نوضح علاقة التركيب الفعلي المتكرر "اتصلت ب" الذي نجده بالفعل في نهاية النداء في استخدام متناظر (Symétrique)، حيث يدعو ديغول

الفرنسيين إلى التواصل معه. يوجد هنا بُعد يبلور الاختيار الذي سيتعين على كل فرنسي أن يقوم به – يؤدي استخدام نفس العبارة اللفظية إلى وضع الفرنسيين أمام مسؤولياتهم واختيار فريق التعاون أو فريق المقاومة.

ذوبان الحجاج في السرد:

إن أحد الجوانب المثيرة للاهتمام التي يجب مراعاتها في إطار التأويل المعروض هو حقيقة أن السرد قد خضع للرقابة من قبل وزارة الخارجية، مما يُظهر بطريقة معينة من جهة أن الهيرمينوطيقا لا تعني بالضرورة شكلاً من أشكال الانغلاق التأويلي، ويُظهر من جهة أخرى أن توجيه السرد كان يُفهم بوضوح على أنه استهلال حجاجي وليس عرضا محايدا للوقائع. يُظهر التأويل المقدم هنا للسرد ميلًا واضحا إلى ملاحظة أن كل شيء موجه نحو هدف معين، وأن هناك حجاجا خفيايقود، من خلال الخيارات النحوية والمعجمية، إلى إثبات أمر وهو اعتبار "قادة الجيوش الفرنسية غير أكفاء ولا يستحقون رتبهم". هل هذا يعني أن كل شيء هو حجاج؟ وإذا كان كل شيء هو حجاج أو كان على الأقل ذا توجيه حجاجي فأين يوجد الفرق بين السرد والحجاج؟ نحن لا نؤمن تماما بفرضية الكل الحجاجي. ومن ناحية أخرى، يبدو المسار الذي اقترحه كريستيان بلانتين واعدًا للغاية:

"إنها محاولة لتجنب أي شكل من أشكال ذوبان مفهوم الحجاج في الكلام أو في المعنى أو في المعلومة التي سيتم اقتراحها (...) رؤية للحجاج تقوم على فكرة التباين النشط للخطابات حول مسألة ما"[(29)].

سنظل ملتزمين بالفهم الكلاسيكي للحجة، ليس من منظور الأطروحة والأسباب التي تُبررها، ولكن من منظور تبادل الأفكار الذي يتجلى في النصوص المونولوجية (Textes monologaux) باللجوء إلى البوليفونية. في المقطع السردي الذي شغل اهتمامنا، فإن الفعل "ادعى" الذي تم تحليله من خلال البوليفونية يجعل من الممكن إعادة إنتاج تبادل حجاجي بالمعنى الذي يُظهر فيه الخطاب معارضته أو اختلافه مع الآخر. ولكن حضور الفعل "ادعى" في السرد ليس هو ما سيجعلنا نعتبره حجاجيا: إنه التعارض البوليفوني، وإبعاد أطروحة "بيتان" التي تمثل في بعض الأحيان بعدا حجاجيا – وهو بُعد يجب تمييزه عن التوجيه الحجاجي للملفوظات.

النقطة الثانية: كيف نحل مفارقة البلاغة القديمة التي لا تعرف بشكل كبير ما إذا كان السرد يحاجج أم يحكي؟ نرى أن التحليل التأويلي الذي تم إجراؤه يُظهر بشكل لا لبس فيه أن السرد لا يمكن أن ينجح في إخفاء وجهة النظر التي سيتم الدفاع عنها، مع التأكيد إذا لزم الأمر أن الكلام لا يمكن أن تكون محايدة وموضوعية. لذلك نقول: نعم، السرد موجَّه حجاجيا، لكن بمظهر يميل إلى الحياد.

يقدم السرد الحقائق كما لو كانت صحيحة، و"كما لو" كان سردها محايدا وموضوعيا. هذا الجانب نفسه في "كما لو" هو الذي يقود الصحفيين بلا شك إلى التعامي عن الكتابة المحايدة والموضوعية والواقعية. لأننا بسهولة نصبح منخدعين بسرد يخلو على ما يبدو من الذاتية.

الإحالات والهوامش:

1) Thierry Herman :Narratio et argumentation, in Argumentation et narration Edite par : Danblon, Emmanuelle, Emmanuel de Jonge, Ekaterina Kissina& Loïc Nicolas, Editions de l'Université de Bruxelles, Bruxelles, 2008, p :29-39

2) Barthes, Roland: L'aventure sémiologique, Paris, Editions du Seuil, coll. « Points », (1985) p :152

3) Reboul, Olivier: Introduction à la rhétorique, Paris, PUF, (1991) p :67

4) Aristote (1998) : Rhétorique, Paris, Gallimard, coll. « TEL », n° 296 (Livre III, 13,1414 a et b).

5) (Livre III, 13, 1417a).

6) Ibid

7) Barthes, Roland: L'aventure sémiologique, Op .cit, p :149

8) Quintilien, Institutions oratoires (1975) : texte établi et traduit par J. Cousin, Paris, Les Belles Lettres, Coll. des Universités de France (IV, 2, 4)

9) Ibid (IV, 2, 20-21)

10) Ibid (IV, 2, 31)

11) Ibid (IV, 2, 108)

12) Ramage, J.D., Bean, J.C. & Johnson, J.: Writing arguments, New York, Pearson (2004) ,p :75

13) Rastier, François: Sémantique et recherches cognitives, Paris, PUF (1991) ,p :84

14) Ibid, p :86

15) Ibid, p :87

16) Rastier, François: « Problématique du sens et de la signification », dans J.-M. Barbier & O. Galatanu (éd.), Signification, sens, formation, Paris, PUF, (2000) p :15

17) Ibidem

18) Reboul, Anne &Moeschler, Jacques: La pragmatique aujourd'hui, Paris, Editions du Seuil , (1998) p :49

19) Rastier, François: « Herméneutique et linguistique : dépasser la méconnaissance », dans Texto !, X/4, décembre 2005, [en ligne].

20) Ducrot, Oswald: « Argumentation et inférence », dans J. Verschueren (ed.), Pragmaticsin 1998, (1999), p :118

21) Ibid, p :119

22) Plantin, Christian: L'argumentation, Paris, PUF, coll. « Qsj ? » (2005) , p :27

23) Ibid

24) Grize (1990) p: 40

25) Plantin, Christian: L'argumentation, Op.cit, p :33-34

26) Rastier, François: Sémantique et recherches cognitives, Op .cit, p :101

27) Rastier, François: Arts et sciences du texte, Paris, PUF, (2001) ,p :17

28) Rastier, François: Sémantique et recherches cognitives, Op .cit, p :110

29) Rey-Herme, Yves : De Gaulle écrivain, Paris, Hatier, (1978) p :22

30) Plantin, Christian: L'argumentation, OP,cit, p :34

لائحة المراجع والمصادر:

Adam, Jean-Michel (2005): La linguistique textuelle – Introduction à l'analyse textuelle des discours, Paris, Armand Colin, coll. « Cursus ».

Adam, Jean-Michel (1999): Linguistique textuelle : des genres de discours aux textes, Paris, Nathan, coll. « fac ».

Aristote (1998) : Rhétorique, Paris, Gallimard, coll. « TEL», n° 296.

Barthes, Roland (1985): L'aventure sémiologique, Paris, Editions du Seuil, coll. «Points».

Breton, Philippe & Gauthier, Gilles (2000) : Histoire des théories de l'argumentation, Paris, La Découverte.

Bronckart, Jean-Paul (1997): Activité langagière, textes et discours, Paris-Lausanne, Delachaux&Niestlé.

Danblon, Emmanuelle (2002) : Rhétorique et rationalité – Essai sur l'émergence de la critique et de la persuasion, Bruxelles, Editions de l'Université de Bruxelles, coll. « Philosophie et société ».

Ducrot, Oswald (2004): « Argumentation rhétorique et argumentation linguistique », dans M. Doury& S. Moirand (éd.), L'argumentation aujourd'hui, Paris, Presses de la Sorbonne Nouvelle

Ducrot, Oswald (1999): « Argumentation et inférence », dans J. Verschueren (ed.), Pragmaticsin 1998 – SelectedPapersfrom the 6th International PragmaticsConference, Amberes, IPrA

Duteil-Mougel, Carine (2004) : « Introduction à la sémantique interprétative », dans Texto ! [en ligne].

Herman, Thierry (2005) : Le fil du discours, analyse rhétorique et textuelle des messages de guerre du général de Gaulle, Thèse de l'Université de Lausanne.

Plantin, Christian (2005) : L'argumentation, Paris, PUF, coll. « Qsj ? ».

Quintilien, Institutions oratoires (1975) : texte établi et traduit par J. Cousin, Paris, Les Belles Lettres, Coll. des Universités de France.

Ramage, J.D., Bean, J.C. & Johnson, J. (2004) : Writing arguments, New York, Pearson.

Rastier, François (2005) : « La microsémantique », dans Texto !, juin 2005 [en ligne].

Rastier, François (2003) : « Herméneutique et linguistique : dépasser la méconnaissance », dans Texto !, X/4, décembre 2005, [en ligne].

Rastier, François (2001) : Arts et sciences du texte, Paris, PUF.

Rastier, François (2000) : « Problématique du sens et de la signification », dans J.-M. Barbier & O. Galatanu (éd.), Signification, sens, formation, Paris, PUF

Rastier, François (1991) : Sémantique et recherches cognitives, Paris, PUF.

Reboul, Anne &Moeschler, Jacques (1998) : La pragmatique aujourd'hui, Paris, Editions du Seuil.

Reboul, Olivier (1991) : Introduction à la rhétorique, Paris, PUF.

Rey-Herme, Yves (1978) : De Gaulle écrivain, Paris, Hatier.